مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 14 ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

مالك بن نبي
وظيفة المثقف في توجيه الفكروالثقافة والتربية من أجل التغيير

Malek Bennabi
The Function of the Intellectual is to Direct thought, Culture and Education for Change

Halim Benhebri * حليم بن هبري
Halim.benhebri@ummto.dz
جامعة مولود معمري تيزي وزو/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-014-002-007

**

الإرسال: 2025/01/08 القبول: 2025/40/30 **النشر**: 2025/06/16

ملخص:

إن الواقع الذي يعيش فيه المفكر الجزائري، يدعو إلى طرح، أسئلة عديدة في مجال الثقافة والتربية والأخلاق، ولهذا كان ولابد من إثارة الاهتمام بالمفكر الجزائري مالك ابن نبي، الذي يعد من فلاسفة الحضارة وعلماء الاجتماع، فقد أسس لنظرية كونية أطروحتها تتوجه إلى دول العالم الثالث التي تعاني من رواسب الاستعمار وتركته الثقيلة، ولهذا فقد بنيَت فلسفته الحضارية على الاهتمام بالإنسان من جانبه الثقافي، والفكري، والتربوي، على أساس وظيفة منوطة بالمثقف، فأين نحن من مالك ابن نبي، فكيف يستطيع المثقف الجزائري خصوصا أن يسهَم في وظيفة التغيير وتوجيه سلوك الأفراد نحو الثقافة التربوية السليمة، وذلك لاستشراف مستقبل أفضل، فقد عمل ابن نبي في معالم الفكر الثقافي والفلسفي، وهيأ شروط الحضارة، متجاوزا بذلك مشكلات الأفكار والنهضة في العالم الإسلامين وإذن فالواقع المعاصر اليوم أصبح بحاجة ملحة، إلى مثل أفكاره، وخاصة في إعداد المنهاج الثقافية والتعليمية، التي تكون تتلاءم بالضرورة مع معطيات العصر.

الكلمات المفتاحية: الأفكار؛ الثقافة؛ المجتمع؛ التخلف؛ التغيير.

Abstract :

The reality experienced by the Algerian intellectual calls for raising numerous questions in the fields of culture, education, and ethics. Hence, it is necessary to draw attention to the Algerian thinker Malek Bennabi, who is considered one of the philosophers of civilization and social scientists. He laid the foundations for a universal theory aimed at Third World countries suffering from the remnants and heavy legacy of colonialism. His civilizational philosophy focused on the human being from cultural, intellectual, and educational aspects, based on a responsibility entrusted to the intellectual.

Thus, where do we stand in relation to Malek Bennabi today? How can the Algerian intellectual, in particular, contribute to the process of change and guide individuals' behavior toward sound educational culture in order to anticipate a better future?

Bennabi outlined the features of cultural and philosophical thought and prepared the conditions necessary for civilization, overcoming the problems of ideas and revival in the Islamic world. Therefore, contemporary reality today urgently needs his ideas, especially in developing cultural and educational curricula that necessarily align with the requirements of the modern era.

Keywords: Ideas; Culture; Society; Underdevelopment; Change.

**

***- مقدمة:**

مما شك فيه أن المثقف الجزائري اليوم يعاني من مشكلات عديدة انطلاقًا من ظروفه الشخصية إلى واقع التخلف الذي أصبح يخيَم على فكر الأمة، ولهذا فقد سعى باحثون ومؤرخون وعلماء دين إلى التغيير من الواقع المزريَ، عن طريق إنتاج آليات التفكير الخاصة بالفرد العربي الإسلامي، وإخراجه من بوتقة التخلف التي أصبحت تلازمه منذ عصر ما بعد الموحدين، ومن بين المفكرين الذين يشهد لهم التاريخ المعاصر بمشروع الحضارة وتغيير الإنسان كمهمة للمثقف هو المفكر الجزائري مالك بن نبي، وسنعتني في هذه البحث، بالحديث عن الثقافة والتربية وكيف يمكن للتربية أن تكون وسيلة للتغيير والاهتمام بالإنسان الذي غلبت عليه شقوة التخلف وعجز عن تجاوز مشكلاته وأزماته، وهي من أصعب المهام التي تواجه المثقف الذي يسعى جاهدا إلى نشر الوعي والعمل على انتاج فرد قادر على فهم مشكلاته والوعي بها، والغاية من ذلك العمل على تغيير واقعه، فمن خلال هذا الوصف الذي يعانى منه المثقف الجزائري وما يزال، فقد تبنى بن نبي وحمل على عاتقه هَم هذه الأمة وسعى إلى تغيير واقعها، والتي سنحاول الحديث عن نظريته في الثقافة والتربية من أجل التغيير، وبناء مجتمع أخلاقي لأن المهمة الأولى للمثقف هي التغيير، وهذا ما يقودنا إلى طرح السؤال :

كيف يمكن وصف و اقع المثقف الجزائري المعاصر؟ فيم تتمثل فلسفة بن نبي في الثقافة والتربية؟ وهل يمكن أن يحدث التغيير في المجتمع الجزائري الراهن التي تحمَل تركة الاستعمار؟

1/ و اقع المثقف الجزائري المعاصر:

قبل الحديث عن نظرية ابن نبي في توجيه الثقافة والفكر والتربية من أجل التغيير وددت الحديث عن واقع المثقف الجزائري المعاصر ويظهر بأن الواقع الذي يعيش فيه هذا المثقف يشبه غير بعيد واقع القرون الوسطى الأوربية، لما كانت تمارسه الكنسية على المفكرين والتنكيل بهم وتشريدهم وفي بعض الحالات يقومون بإعدامهم باسم الدين.

ولهذا فإن المفكر الجزائري الذي شغله واقع أمته المتردي يحاول أن يغيَر قدر المستطاع وإخراج هذا المجتمع من بوتقة التخلف وترشيده نحو الأفضل، ففي الغالب المجتمعات الأوربية قد خرجت من أزمتها الفكرية التي دامت لقرون طويلة سميت بالقرون الوسطى فبفضل الفلاسفة والمفكرين والمثقفين الموسوعيين قد أخرجوا مجتمعاتهم من واقعهم المتردي بفضل الثورات ودعم المثقف لحركة التغيير لها مثلما هو واقع مع جون جاك روسو، وفولتير، ومونتيسكيو، الذين خططوا للثورة الفرنسية ونجاحها، وحققوا الحداثة، والحضارة، وتكوين الإنسان الواعي بواقعه، وتخطى مشكلة تكوين أزمة الإنسان .

إن المثقفَ اليوم يعيش واقعًا مريرا لعدم وجود الأرضية المناسبة والخصبة لزرع أفكاره التي تعد بمثابة النور الذي يخرج المجتمع من واقعه المتأزم لأن واقع الثقافة والتربية اليوم في وضع متردي، فالمثقف يجتهد

ويعمل ويؤلف ولكن لا يجد من يقرأ أو يفهم أفكاره، فيترتب عن ذلك أن معظم المثقفين في الجزائر غير معروفين ليس لشخصهم وإنما لثمرة اجتهادهم وما سعوا من أجل بنائه لسنوات من العلم والكد والسهر، فيذهب هباء منثورا فيشملهم اليأس ودون العمل مجددا من أجل النهوض بواقعهم المتخلف.

ولهذا كان اهتمامنا بالمفكر الجزائري مالك ابن نبي الذي شعر بقضايا أمته فعمل على وضع مشروع حضاري وانساني يخرج المجتمع من التخلف والاستعمار، فقد كانت المرحلة التي ألف فيها تميزت بمشكلات الحضارة، حيث كان الفكر العربي الإسلامي قد انقسم إلى فريقين:

-المسلك النموقراطي (Nemocratic) ويمثله تيار الإخوان المسلمين

-مسلك المرجعية التصورية المستقلة لدى الأديب والناقد سيد قطب والذي تحوّل تدريجيا إلى مفهوم الحاكمية والعزلة الشعورية ورفض الحداثة كجاهلية جديدة. (أباه، 2010، ص135)

إلا أن خصوبة أفكار بن نبي قد انتشرت في شعوب العالم العربي والإسلامي، وأصبح مالك هو فيلسوف الحضارة، وقد صنفت مؤلفاته بسلسلة مشكلات الحضارة ومن أبرزها:

ميلاد مجتمع / تأملات / في مهب معركة / شروط النهضة / الظاهرة القرآنية / وجهة العالم الإسلامي / مشكلة الأفكار فب العالم الإسلامي / الصراع الفكري في البلاد المستعمرة / المسلم في عالم الاقتصاد / فكرة كومنولث اسلامي / بين الرشاد والتيه.....

3/ تغيير الإنسان من أولويات المثقف:

لنتأمل النص الآتي: **"وفي هذا المجال نرى في تعليق (نوفيل أو بسرفاتور) توضيحا لا مزيد عليه في الموضوع، إذ إن صاحبه (جان دانييل) احتج على (فرانسوا فوريه) برأي، أدلى به (جيفارا) في حديث عن الثورة يقول فيه:"" إذا لم يعن بتغيير الإنسان فالثورة لا تعني لي شيئا بالنسبة لي"")**، (بن نبي. م، 2016، ص: 50) ويقصد بذلك أن المثقف له مسؤولية عظيمة لما كلف نفسه به، لأن الثقافة والمعرفة في أصلها تدفع بالمفكر إلى البحث عن شروط وكيفيات التغيير ووسائله حسب طبيعة كل مجتمع، إضافة إلى أن المجتمع الجزائري قد تترتب عن آثار الاستعمار رواسب عديدة قد تعد بالنسبة للمثقف أكثر من القيام بالثورة ذاتها لأن الاستعمار قد عمل من أجل طمس هوية الفرد الجزائري من ناحية لغته وتاريخه، ومعتقداته وعاداته وتقاليده، فتلك الرواسب ماتزال تؤثر إلى اليوم، فحسب ابن نبي ""**أينما حل الاستعمار كان يلوث الإنسان، حتى أصبحت تصفيته من رواسب الاستعمار أهم عمل ثوري في الثورة**""، (بن نبي. م، 2016، ص: 52) وبالتالي فإن الفرد الجزائري الذي كان يعمل كجندي في جيش الاحتلال يظهر بصورة الحقارة، ولكن عندما اندلعت الثورة أصبح ينظر إليه نظرة البطل والمجاهد فتجسّد الاحترام وفرض على المستعمر، وإذن فإن التغيير أيضا له علاقة بالكلمات فدعنا نضرب مثالا بسيطًا عن وضع المثقف الجزائري الراهن، إذا مارس المثقف التأليف في مجاله أو غير مجاله فأراد أن يستهدف طائفة معينة، فإن وقع اللغة له تأثير عميق على نفسية القارئ، واستحبابه فيها مما يدفع بالقارئ إلى الاهتمام الكبير بهذا المثقف، ويسعى إلى فهم مشروعه الفكري ويصبح محل اهتمام واستباق

للأفكار مثلما هو واقع مع مفكرنا بن نبي، ولهذا فإن بناء الثقافة وتوجيهها تكون على عاتق المفكر المثقف، فقد ذكر بن نبي أن مواجهة المثقف لمشكلة الثقافة في أي بلد يعود إلى درجة التطور الحاصل في ذلك البلد، فإن وعي المثقف بمستوى ثقافة مجتمعه ضرورة حتمية لإدراك الصعوبات والمشكلات التي تحول دون تجاوزها، ولهذا فإن العالم العربي الإسلامي يختلف عن موقفه من الثقافة عن العالم الغربي، ولكن ما يؤخذ على بعض المفكرين الذين تشبعوا بالثقافة الغربية يحاولون تطبيق أبجدياتها نفسها على المجتمع العربي الإسلامين فشتان بين مجتمع يطمح أن يمتلك قوت يومه، ومجتمع قد تجاوز مسألة الغذاء وبلغ التطور والحداثة، وإذن على المؤلف أن يدرك وضعه الثقافي ووضع مجتمعه قبل أن يبدأ فعل التغيير، لأن في الغالب مجتمعاتنا لم تبلغ بعد الثقافة العلمية المرجوة من ذلك فيقول ابن نبي :""**إن العالم العربي الإسلامي يختلف في موقفه من الثقافة عن العالم الغربي وعن العالم الشيوعي ، فليست مشكلته منحصرة في محاولة فهم الثقافة، و إنما في تحقيقها بصورة عملية**"" (بن نبي. م، 2016، ص: 52)

ثم إن الامبرالية الغربية، أي الاحتلالية كانت السبب في تأخر دول إفريقيا على عمومها، فعلى المثقف أن يفهم الدوافع التي تقوم عليها الامبرالية والغاية التي أتت من أجلها، إن زوال هوية الفرد من عمل الاستعمار ""**ولكي نجاري العصر، لابد من الإجابة بشكل آلي أن ذلك يعود إلى الامبريالية، وعلى كل حال يبقى الجواب صحيحا، ولكن يجب رغم ذلك ألا نخضع لآلية الجواب بل يجب أن نفكر، يجب أن لا نهتم، بل أن نفهم لم تستطع الامبرالية، بضربة من عصا سحرية أن تحطم مشاريعها المبشرة لنا بالخير أحيانا، ومن ثم الخطرة عليها، إنها لا تفعل أكثر من استغلال مواطن ضعفنا، إما في تصميم مشاريعها وإما في تنفيذها**"" (بن نبي. م،2019، ص :81)

إن ما يواجه المثقف في الجزائر مشكلة فهم معنى الثقافة ذاتها لأن الغالب والمعروف عنها الفنون وليس المعرفة العلمية، فيعبر عن ابن نبي قائلا:"" **فنحن عندما نطرح بالجزائر هذا السؤال: ما الثقافة؟ فإننا لا نفكر بالدرجة الأولى في ضروب التسلية التي يمكن أن تقدمها لنا الفنون الفلكلورية، والمسرح والشعر ولكننا نفكر أولا في الحقائق المحسوسة للتخلف: في البطالة والأميّة، ونقص التغذية**" (بن نبي. م، 2019، ص: 71)

فحسب بن نبي فإن تخلف المجتمعات له مرجعتيه التاريخية والجغرافية، ويعود هذا المصطلح إلى الاقتصاد الذي يوصف بالركود والتردي المستمر، ولهذا فإن التخلف قد نتج عن مشكلة الإنسان الذي لم يحسن استغلال الوسائل المتاحة أمامه من أجل تغيير واقعه الاقتصادي والتي حددها بن نبي في التراب والزمن في صورته الفعالة، ولهذا على عاتق المثقف أن يحفز الأفراد ويجد سبل بعث روح الفعالية للأفراد من أجل استخدام قدراتهم للتحسين من الواقع الاجتماعي، ولهذا سعى ابن نبي إلى محاولة خلق الصلة بين الثقافة والفعالية بكونها صفة ملازمة للإنسان المتحضر، لأن حضارة مجتمع ما تقاس بمدى وجود التفاعل بين الصورة الإجمالية للثقافة والوضعية الاجتماعية والاقتصادية لذلك المجتمع، بمعنى إذا كان الوضع الاقتصادي متخلف ومتدهور بالضرورة ستكون ثقافة ذلك المجتمع في الحضيض، ولهذا فإن أغلب الدول المتخلفة ثقافيا تجدها بالضرورة متخلفة اقتصاديا، فيجب صنع الإنسان المثقف من أجل بناء اقتصاد متقدم.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

ومن بين الأمثلة التي يوردها بن نبي قضية إعادة بناء ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، فوجد الشعب الألماني نفسه مدمرًا ومخربًا في جميع المجالات، ولكن فعالية المجتمع الألماني وثقافته قد أدت إلى إعادة إعمار ألمانيا في وقت وجيز فاستغل شروط الحضارة وفعلا أسس حضارة.

فقد طرح بن نبي مشكلة الثقافة والفعالية في المجتمع الجزائري فبحث عن السبل الممكنة لإعداد هذه الثقافة وقد بناها على أمرين: فيتعين علينا أن نكوّن رصيدنا الثقافي الفعال وأن نصفيَ راسبنا السلبي، فقد كانت محاولات عديدة في الجزائر من أجل إيجاد سبل هذه الفعالية خصوصا مع الحركة العصرية التجديدية والحركة الإصلاحية، ولكن مشروع هذه الحركات قد باء بالفشل، لأن المصلح قد نسي أن يصلح نفسه أولا، فالصلاح الحقيقي هو صلاح الذات ثم التجاوز لإصلاح الغير.

إن مهمة المثقف اليوم هي توجيه الإنسان، والعمل على إرشاده من أجل الوعي بذاته وبواقعه، فقد عرف ابن نبي التوجيه بأنه"" **قوة في الأساس وتو افق في السير ووحدة في الهدف، فكم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها**"" (بن نبي. م، 1986،ص: 84)، إن عدم قدرة المثقف على إرشاد وتوجيه الطاقات الكامنة في الأفراد، فإن ذلك سينتج عنه سلبيات عديدة خصوصا ما يواجه الطاقات الشبانية في عصر قد تكالب الأعداء علينا وكانت التكنولوجيا السبيل الذي استطاعوا أن يتحكموا فيهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي الذي وضعوا فيه الثغرات المناسبة لاستدراج الطاقات الشبانية إلى الانحراف والإدمان، مع التشجيع عليه لأن الوعي بهذا العمل غير مؤسس في ذوات الأفراد، إننا اليوم نواجه مشكلات كثيرة تتعلق في توجيه طاقة الفرد الجزائري، إلا أن مالك ابن نبي قد قال سابقا: " **نحن شرعنا في بناء نهضتنا منذ خمسين عاما، ذلك هو مكاننا، أي تلك هي اللحظة الخاطفة التي تسجل نهاية الظلام في ضميرنا، ودبيب الحياة في ذلك الضمير، فهي اللحظة الفارقة بين عهد الفوضى الجامدة والجمود الفوضوي، وعهد التنظيم والتركيب والتوجيه".** (بن نبي. م، 1986، ص: 85)

فهذا ما اعتقده بن نبي في عهد التنظيم، بالعكس تماما فنحن في أتم زمان الفوضى العارمة التي لا أساس واضح لها، والدليل: لو تضع إعلان للطلبة الجامعين الذين يمثلون النخبة: فتضع في الأول إعلان عن ندوة فكرية علمية ينشطها مثقفين من المستوى العالي، وفي الوقت نفسه تضع إعلانًا آخرًا لقدوم المؤثرين اليوتوبورس لوجدنا أن المثقف يحاضر لفئة قليلة من الناس الحاضرين، وفي الإعلان الثاني فإن القاعة قد امتلأت عن آخرها قبل حضور المعني لساعات، ولهذا فإن دور المثقف في الجزائر مهمته ستكون بشبه المستحيلة في تغيير الإنسان.

وإذن لابد من إعادة النظر في نظام التربية لدى الفرد الجزائري، وسنتحدث عن فلسفة التربية عند ابن نبي وكيف يمكن بناء فرد ذا فعالية من أجل التغيير.

وغالبا ما يحث بن نبي على مفهوم الفاعلية لدى المثقفين، فإننا نجد المثقفين اليوم، أو نحدد شخصا مثقف، عندما يحصل لديه الكم الهائل من المعلومات والخبرات في جميع المجالات، مثقفا في مجال تخصصه، فهذا على العكس من المثقف صاحب الفاعلية، الذي يعكس تلك المعلومات المكتسبة في انتاج

فعل يؤثر به على مجتمعه ويجعله في أحسن أحواله، فالفاعلية إذن هي "" **نمط من التفكير العلمي الذي يتوفر على إرادة حقيقية تنطلق من ذلك التغيير الخاص بشروط الحياة النفسية والاجتماعية كشرط أساسي لإحداث انقلاب إيجابي على مستوى الأفكار والمفاهيم حول النفس والمجتمع والتاريخ**"" (مرزوقي. ب، 2020، ص: 257)

ولكن للأسف مانشاهده اليوم، أو نلحظه في الواقع المعيش، يظهر المثقف على أنه المتحدث البارع، والذي تحصل لديه معارف عديدة، فتغيب عنه الفاعلية، أو لنقل أن المثقف عبارة عن سارد لمعلومات السابقين لا غير، لا يعدو كونه منتجا لنظريات فاعلية تغييرية على المجتمع.

فيمكن وصف حال المثقف في غياب انتاجه الفكري، بالأمة التي تعيش في سبات أين يغيب العقل واستخداماته في انتاج الأفكار: ""**ندرك أن الذات العربية لا زالت تعيش حالة السبات الحضاري**"" (بوعرفة. ع، 2016، ص: 39).

فالذي يصنع الثقافة والفكر اللذان يدفعان إلى الحضارة هو المثقف، فهل يعني هذا أنه ليس لدينا مثقفين يمكنهم إيقاظ الأمة من سباتها، وبعنى آخر أليس لدينا مفكرين عرب وإسلامين يمكنهم أن يبتعثوا النهضة في الأمة كمشاريع تنويرية نهضوية، مثل تلك الأفكار التي جاء بها بن نبي، بمعنى هل يمكن تطبيق أفكاره على واقعنا حتى نخرج مما نحن عليه أم هنالك معطيات أخرى تحول دون ذلك.

وسبب عدم تطبيق مشاريع المثقفين أو أصحاب الأفكار الاجتماعية لسببين:

السبب الأول: هو عدم القدرة على التخلص من رواسب الاحتلال وتركته التي لا نزال نعاني منها إلى اليوم.

السبب الثاني: هو عدم مساندة السلطة الحاكمة لنخبة المثقفين من أجل تجسيد أفكارهم، وخاصة في مجال التعليم في مراحله المختلفة، فنحن لا نزال نتكئ على عصا الغرب في استمداد مشاريعها أليس لدينا مثقفين متخصين في المجال حتى نعتمد على الآخر.

ولهذا فإن عجز مثقفينا عن إنجاز مشاريع توجهية للإنسان، هو السيطرة على حسب بن نبي الجهل والوثنية، فليست الوثنية بالتفكير الجاهلي العربي القديمن وإنما تتجلى الوثنية في تقديس الأشخاص، والوثنية السياسية فعندما تغيب الفكرة يبزغ الصنم الذي يسيَر عقولنا: ""**إن احتلال الوثن مكان الفكرة في الحياة السياسية وسيطرة سلطة الصنم على مقاليد الحكم في الدولة يؤدي إلى إتباع نفس الشعب لإهانة المستعمر وتتكون فيه الروح التي تقبل الاستعمار فنشأ فيه القابلية للإستعمار، والوثن السياسي جهل الجاهلية بما يجب أن تقوم الحياة السياسية**"" (بوبكر. ج، 2015،ص: 151)

4/ مفهوم التربية عند مالك ابن نبي:

إذا ما بحثنا في الإرهاصات الأولى لمفهوم التربية، فإننا نجده من بين اهتمامات علماء الاجتماع والفلاسفة منذ القديم، باعتبارها وليدة ارتباط اجتماعي، على أساس أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه حسب ""ابن خلدون""، وإن هذه العلاقات بين الناس التي تأخذ طابع التواصل والتنافر، فلا بد من وجود نظلم تربوي يضبطها، فيري مالك ابن نبي أن "" **عجلة المجتمع تدور بفضل شبكة علاقاته، وأن هذا النشاط هو الذي تنشأ عنه تغيير صورته**"" (بن نبي. م، 1986،ص: 75).

وأورد ابن نبي في مجمل مؤلفاته أن هناك مفهومين للتربية:

أ/ المفهوم الأول: ""التربية هي المنهج الذي يهدي سيَر مجتمع ما، تأخذ قواعدها العامة من علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس "" (بن نبي. م، 1986، ص: 75)

إن النظام التربوي لأي مجتمع يجب أن يراعي في قيامه الجانب التاريخي: أي دراسة تاريخ ذلك المجتمع وامتداد فكره وثقافته عبر الزمن، لأن الثقافة التاريخية لها حضورها الفكري في البرنامج التربوي، ولهذا سيكون هناك اختلاف بين برنامج دولة على برنامج دولة أخرى حسب حوادثها الماضية، وكذلك ربط ابن نبي النظام التربوي بعلم الاجتماع ، لأن علماء الاجتماع المتخصصين في دراسة المجتمع وبنيته مراعين في ذلك حتى الأبعاد الانثربولوجية، لذلك المجتمع، إعادة إلى إعداد منظومة تربوية مقرونة بما هو كائن وما سيكون مستقبلا، لأن التربية هي إعداد جيل يقود الأمة في المستقبل، إضافة إلى مراعاة الشروط النفسية والظروف الوجدانية والعاطفية للنشء، بمعنى إنشاء نظام يتلاءم مع الميول النفسي.

ب/ المفهوم الثاني: ""التربية وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغيَر شرائط الوجود نحو الأحسن وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك"" (بن نبي. م، 1986، ص: 76)

وهذا التعريف يعد من أهم منطلقات فكر بن نبي، وهو التغيير لأن المجتمعات المتخلفة التي يغلب عليها طابع التبعية للآخر، فإن عليها أن تغير من كل شيء ومن كل مجالاتها، وهذا التغيير ينطلق من الإنسان، إذن الأزمة هي أزمة إنسان، كيف يمكن إعداده وتكوينه من أجل مواجهة الحياة وبناء ما هو صالح لذاته ولغيره، ويكون كل هذا بالتعليم وفي الغالب فإن التعليم مرهون بالتربية، وهي مقترنة بالعلاقات الاجتماعية التي توَجه سلوك الفرد.

إذن: التربية منهج يسيَر المجتمع، منطلقه التاريخ والمجتمع.

التربية وسيلة لتغيير الإنسان.

5/ التربية الاجتماعية:

يتساءل هنا بن نبي حول التربية الاجتماعية فيقول: **""هل يمكن أن نستخرج فكرة تربية اجتماعية، أعني: منهجا يهدي سيَر مجتمع ما""** (بن نبي م، 1986، ص: 75)

وإن فكرة الإصلاح التربوي لمجتمع ينطلق من التنشئة الإسلامية الأولى، فيقول في ذلك ابن نبي في كتابه ميلاد مجتمع:"" **فإذا قلنا إن هناك تربية اجتماعية فإن قواعدها العامة ينبغي أن تستقى من علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، ومنهجنا الذي اتبعناه حتى الآن يرجع بالتحديد إلى التاريخ، وذلك لكي نستخرج هذه القواعد في صورتها النظرية والو اقعية معا، هذه القواعد هي ثو ابت التاريخ، تلك التي لا يغيرها الزمن على حين يغير المجتمعات، إن نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه، هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن بلغة أخرى حين قال:"" لا يصلح آخر هذه الأمة إلا**

بما صلح به أولها"" [هذه المقولة لمالك بن أنس وليس للرسول، ويبدو أن مالك بن نبي لم يتفطن على ذلك] (بن نبي. م، 1986، ص: 76)

فحسب ابن نبي أن مراحل التربية الاجتماعية القائمة على مبادئ الإسلام على ثلاث مراحل:

أ/ المرحلة الروحية:

وهي العلاقات والروابط التي يتماسك بها أفراد المجتمع الواحد، وهي عبارة عن بنيان مترابط أو نسيج متماسك ببعضه أي أن يصبح الكل في واحد، والواحد في الكل، إضافة إلى تلائم الظروف النفسية وأفعال الفرد منعكسة بفعالية على المجتمع، ويستخدم الفرد كل طاقته الحيوية في خدمته، وهذه هي المرحلة الذهبية التي يصل إليها المجتمع، ثم إن هذه العلاقة الحيوية تتميز بالحركة، وهذه الحركة دائمة الصعود ليس مثلما هو حادث مع العالم الإسلامي الذي توقفت حركته الحيوية وأصبح العمل الروحي الجماعي غائب تماما عن روح الأفراد ما يؤدي إلى زوال القيم الروحية فيما بينهم.

ب/ مرحلة التشتت:

ثم إن المجتمع الإسلامي قد تعرض إلى صدمات ومشكلات سياسية قد عرقلت للفرد المسلم صيرورة حركته الحيوية، ودخلها الخمول، والتشتت مثل: صدمة الصفين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث وثلاثين سنة، إضافة إلى بعض الحركات مثل تلك التي قامت بها المرجئة والقرامطة ""...**فمجموع من الطاقات لم يعد يعمل، ومجموع آخر يعمل في اتجاه مضاد وبعبارة أخرى أصبح: ضد المثل الأعلى للمجتمع**"" (بن نبي. م، 1986، ص: 77)

ج/ مرحلة تفكك الغرائز:

في هذه المرحلة تكون الغرائز تعمل بشكل فردي وليس جماعي، فيغلب طابع المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، فيقول ابن نبي: ""**في هذه المرحلة تسود الفردية تبعا لتحرر الغرائز، وتتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا، وهو ما يطلق عليه في التاريخ عصر الانحطاط، وكذلك العصر الذي هيأ في المجتمع الإسلامي ظروف القابلية للاستعمار والاستعمار، فكل فكرة عن التربية الاجتماعية يجب أن تصدر من هنا:**

إنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذجية الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع"". (بن نبي. م ، 1986، ص: 77)

6/ الطفل والأفكار:

تبنى المناهج التربوية والتعليمية في الغالب على مستوى ثقافة الأطفال، وشخصيتهم طبقا للتي تكونت في ظروف نفسية واجتماعية ودينية وعقائد موروثة عبر الأجيال والتاريخ، فيرى ابن نبي أن الطفل يتدرج في عوالم ثلاثة وهي: **الأشياء والأشخاص والأفكار، ويمكن** معرفة شخصية الطفل من جانبين الأشياء والأفكار، إضافة إلى شروط أخلاقية وتقنيَة، فتظهر على الطفل في سياقات نفسية وجسدية، ويكون

الطفل في بداية نشأته الأولى منعزلا عن عالم الأشياء، فلا بد للعائلة والمدرسة والمجتمع أن يساعدوا في اندماج الطفل دون أن تلغيه.

ويتم الاندماج بين الطفل والعوالم الثلاثة عن طريق:

أ/ المرحلة الأولى: أي الاتصال الأولي بالعالم الخارجي لا تتكون له الصوَر واضحة عما حوله بالنسبة له يده والمصباح الذي فوقه الشيء نفسه، وعليه ليس له صورة عن عالم الأشياء.

ب/ المرحلة الثانية: ثم تأتي الاندماج الاجتماعي، إلى المدرسة فيكون اندماجه تدريجيا وليس بصورة واحدة، ولكن كذلك التدرج في الاندماج يكون مختلفا من طفل إلى آخر فحسب نظرية كارل غوستاف يونغ 1961/1875. في علم النفس: إن الطفل المنفتح لديه السرعة في الاكتشاف وانتقاله من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار، عكس الطفل المنغلق الذي تكون المدة طويلة بين المرحلتين، وإذن المرحلة المهمة في نمو الطفل بين العوالم الثلاثة هي عالم الأفكار، تكون بداية دخول الطفل إلى عالم الأفكار عندما يتمكن فيها من تكوين روابط شخصية مع مفاهيم تجريدية، فحسب بن نبي يحدث هذا ما بين السابعة والثامنة من العمر، والمراحل العمرية السابقة تقتصر على عالم الأشياء وعالم الأشخاص. (بن نبي. م ، 1989، ص 31)

وعليه فلا بد من إعادة النظر في البرامج التعليمية الموَجهة للأطفال في المدارس التحضيرية والابتدائية، فكيف لطفل لا يزال في مرحلة محاولة إدراكه وفهمه لعالمه الخارجي، ولا تكون له القدرة على التجريد والصورنَة، وبالتالي لا يستوعب مسائل رياضية من المستوى الثالث، وقوانين السلطة ومجالسها، والتاريخ القديم وغيره، وإذن سيكون مصير المنظومة التربوية هو الفشل لا محالة.

وعندما يستطيع الطفل أن يتجاوز عالم الأفكار، وتكون له القدرة على صناعة الأفكار المجردة ويربط أحداثا ذهنية من صناعة عقله، هنا يدخل الطفل في محيط ثقافي وأحيانا في أنظمة ايديولوجية، لها من خصائصها ما يفصل بينها وبين المجتمعات المحايدة أو الخامدة.

إن تقدم الطفل في عالم الأفكار شيئا فشيئا، فإنه ستكون له تغيرات جسدية، ونفسية في الوقت ذاته، وكذا إن سمة التغيير تظهر على ملامح الطفل ففي سنواته الأولى يكون فمه مفتوحا لتلقف أي شيء طعام أو أشياء ثم يبدأ يغلق فمه بدوافع داخلية وتلك هي لحظة اندماجه الاجتماعي وتطوره النفسي.

إذن مسألة ملامح الوجه وإغلاق الفم مقرونة بمدى تعلم الطفل واندماجه، فالتجربة التي قام بها ابن نبي على فريق من عمال جزائريين أميين :**""حين اضطلعت بمهمة تعليمهم القراءة والكتابة في فرنسا عام 1938م، فكلما تقدمت التجربة شيئا فشيئا، والتي تابعتها تسعة أشهر كنت أرى وجوه تلاميذي تتغير، كانت الوجوه ذات وميض وحشيَ، وقد تأنست تدريجيا، لقد اختفى بريقها الحيواني ليحل محلها شيء ما، ينم عن فكرة داخلية، عن حضور فكرة، من ناحية أخرى فالشفاه أطبقت أو ازداد تقاربها، الرأس الذي تلقى، فكرة قد شغل عضلات الصدغ، التي تعمل كنابض يشد نحو الأعلى الفك الأسفل الذي يغلق الفم ""**. (بن نبي. م، 1989، ص: 32)

إن التجربة الميدانية الممارسة على فئة أميين قد تدل على أن التعليم يجعل من الجسد يتحكم في بعض أعضائه، وبالتالي يكون العلم غذاء للعقل وهو القوة أو الفطرة التي تحرك الجسد، فكلما زاد الإنسان في العلم كلما ضبط جسده، وكذلك تكسبت روحه الحكمة وفي قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ **(سورة الزمر الآية رقم 9)**

7/ معنى الثقافة في التربية:

إن أي اجتماع إنساني بالضرورة يكون لديه مستوى ثقافي يحدد تقدم وتخلف هذا الاجتماع، وإن الثقافة لها ارتباط وثيق بالتربية، ويمكن أن نسميها بالثقافة التربوية:

يرى ابن نبي أن الثقافة ليست محددة بشعب دون سواه من الشعوب الأخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوَع الاجتماعي، يعبر عن ذلك قائلا""**.... وعلى الأخص، إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقيَ والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من الجسر إلى الهاوية**"". (بن نبي. م، 1986، ص: 86)

ويشبه مالك ابن نبي الثقافة في المجتمع، فهي شبيهة بالدم الذي يحتوي على كريات حمراء وأخرى بيضاء في سائل سيتوبلازم، فهي أفكار النخبة وأفكار العامة في نمط ثقافي اجتماعي موحد، وهذه الأفكار هي التي تغذي حضارة هذا المجتمع، إما بالتقدم نحو الأمام أو التردي والتخلف، والثقافة التربوية تتألف من عناصر أربعة، يتخذ منها الشعب دستورا لحياته المثقفة:

1-عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

2-عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

3-منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

4-الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون. (بن نبي. م ، 1986، ص: 87)

8/ التربية من أجل الأخلاق السليمة:

وجد الاجتماع الإنساني من أجل تكوين حضارة مستخدما في ذلك غريزة ولكن تخضع للتهذيب والتوظيف بروح خلقية سامية، ثم إن النظرة المتداولة عند مفكرينا أن التاريخ ثابت ولا يتغير فهو خطأ حسب ابن نبي، إن الحوادث التاريخية تتأتى وتعود من جديد في ثوب بآخر، ومثال ذلك روضة الأطفال كمركز مختص بالعناية الطفولية، ولكن في أمرها الأول تعود هذه الفكرة إلى القديس فإنسان دي بول Vincent de Paul (1581- 1660)الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. (بن نبي. م، 1986، ص 89)

يربط كذلك ابن نبي النظرة الخاطئة عن المدنيَة الغربية بأنها ذات إنتاج علمي وفني وصناعي، ولكن أغفلنا أن هذه المنتجات لها علاقة وطيدة بالصلات الاجتماعية فيقول في كتابه شروط النهضة:""**...ونسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقي، الذي قام عليه صرح المدنيَة الغربية، في علومه**

وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على الجميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون، فلو أخذنا جهاز الراديو مثلا، لرأينا فيه مجهودات علمية وفنية مختلفة، دون ان يحظر ببالنا أثر القيم المسيحية في بناء هذا الجهاز، على حين أنه في الواقع أثر من آثار العلاقات الاجتماعية الخاصة....) (بن نبي م، 1986، ص: 95)

إذن الدافع إلى الاختراع والإبداع هو ذلك الارتباط الاجتماعي والأخلاقي والوجداني بالقيم التي ينشأ عليها الفرد، وبالتالي البعد التربوي للفرد يجب أن يكون نابع من الوسط الديني والأخلاقي، فيعد الدين الأساس الأول الذي تبنى عليه الأخلاق والقيم.

وإن الدين الإسلامي هو الذي يقوم على الأخلاق قبل ممارسة أي سلوك إبداعي، ويضرب ابن نبي مثالا على التربية الأخلاقية التي يتوَلد عنها التماسك الاجتماعي الذي يقود إلى الإبداع، في عصر الإسلام الأول كالأنصار والمهاجرين، كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن يُزوجه إحدى أزواجه، بعد أن يطلقها له، لكي يبني أسرة، وتولدت وتكونت لنا حضارة على أرض قاحلة وسط البدو، أسسها رجال الفطرة والصحراء. (بن نبي. م ، 1986، ص: 90)

ثم إن العلاقة الاجتماعية التربوية الأخلاقية هي التي تصنع الفرد المبدع، وإن كان الإسلام الأول قد عمل على بناء حضارة قوامها الأخلاق، فالتنشئة الأخلاقية السليمة يجب أن تتجسد في منظومتنا التربوية، فيجب استحداث مثلا أحد المواد في التعليم التحضيري أو الابتدائي، مادة: تعليم القيم الأخلاقية، والتي يكون مصدرها الدين في الأساس الأول ثم تلي بعد ذلك المعايير الأخرى، وإن كان للفرد نشأة أخلاقية سليمة، تتغذى من روح العلاقات الاجتماعية، فإنه بالضرورة سيتوَلد عنه الابتكار والإبداع، أما إذا كانت تربية الطفل الأخلاقية تكون فارغة أو جوفاء، من أي مبدأ أخلاقي ديني، فإنه يكون مصير العلاقات الاجتماعية المتماسكة مصيرها الزوال والاندثار، وهذا ما يترتب عنه مجتمع مادي يعمل لصالح نفسه على حساب غيره، فتسيطر الغريزة على الأخلاق.

***-خاتمة:**

وكخلاصة لما أوردناه في معالجتنا لموضوع دور المثقف في توجيه الفكر والثقافة من أجل التغيير، فيكون واقع الأمة الجزائرية قد حكم عليه بالتدهور الفكري والثقافي والسياسي وفي مجالات عديدة مختلفة قد أنتجت جيلا غير واع بواقعه، ولهذا فإنه يتوقف على المثقف خصوصا أن يسعى جاهدا بذل طاقاته الفكرية والنخبوية من أجل المساهمة في تغيير الإنسان كما قد دعي إلى ذلك المفكر الجزائري مالك ابن نبي، الذي سعى إلى بناء مشروع لتغيير الإنسان، ولكن مشروعه لم يلقى البيئة المناسبة لا من حيث فترة حياته ولا من حيث فترة ما بعد الاستقلال بعقود من الزمن، فإن إعادة بناء الإنسان يكون عبر التربية وتجسيد لهدفها المرجو منها من أجل التغيير، فالهدف الذي وجدت من أجله التربية هو التسيير الحسن للمجتمع بدافع وسائل قوامها المبادئ الأخلاقية والدين، فقبل ان نضع منظومتنا التربوية ووضع المناهج التعليمية فلا بد من مراعاة جوانب مختلفة لشخصية المتعلم عن طريق:

-علم التاريخ: أي أن تاريخ البلاد ومقوماتها التاريخية والإرث المتداول من جيل إلى آخر.
-علم الاجتماع: دراسة الصلات والعلاقات الاجتماعية بمعنى دراسة كيفية اندماج الطفل مع المجتمع وزرع فيه روح المبادرة الغيرية ويساعد في ذلك: الأسرة والمجتمع والدين، لأن الإبداع متعلق بالتنشئة الاجتماعية والأخلاقية والدينية قبل كل شيء.
علم النفس: إنتاج نظام تربوي يتوافق مع شخصية الطفل النفسية، وكذا تطورات عصره لأن ما يتلقاه الطفل في مدرسته يؤثر على تكوين شخصيته، وبالتالي عند تبني نظام تربوي مأخوذ من عند الآخر أو تقليدا كان، فهذا سيعود عليه بالسلب أي أن ما يدرسه الطفل يخالف ما يتعايش معه في أسرته ومجتمعه وبالتالي فإن منطلقات الذات، والعلاقات الاجتماعية وماضي الأفراد، والظروف الحيوية النفسية هي التي تؤسس لقيام نظام تربوي سليم.

**

قائمة المصادروالمراجع:

إعادة كتابتها على النحو الآتي:

1-مصادر مالك بن نبي:

1. (1986م)، ميلاد مجتمع، ت: عبد الصبور شاهين، ط3، دمشق: دار الفكر.
2-(1989م)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ت: بسام بركة، احمد شعبو، إ: عمر مسقاوي، ط1، دمشق: دار الفكر.
3-(1986م)، شروط النهضة، ت: عبد الصبور شاهين، ب ط، دمشق: دار الفكر.
4. (2016م)، بين الرشاد والتيه، ط2، دمشق: دار الفكر.
5. (2019م)، القضايا الكبرى، ط15، دمشق: دار الفكر.
6. (2019 م)، من أجل التغيير، ط12، دمشق: دار الفكر

قائمة المراجع:

1. بوعرفة، عبد القادر، (2016)، العرب أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل، ط1، بيروت: ابن النديم للنشر والتوزيع.
2. السيد، ولد أباه، (2010م)، أعلام الفكر العربي، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

قائمة المجلات:

1.د. جيلالي بوبكر، (2015)، موانع التجديد في فكر مالك ابن نبي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، (ع2). الصفحات: 149 – 160.
2.د. مرزوقي بدر الدين، (2020)، دور الفعالية في بناء الذات الثورية في منظور مالك ابن نبي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، (م9/ع3). الصفحات: 266-255.